مكان، سواء بشكل مباشر او بشكل غير مباشر. فالمجتمع المدني لا وجود له في الدول العربية[1]؛ هذا المجتمع الذي به تخلق القنوات والأطر المعبّرة عن ارادة الشعب، وبه يحدّد المواطنون حقوقهم والتزاماتهم، وبه يجدون الحماية من تجاوزات السلطة السياسية وتعدّياتها، سواء على حقوقهم الشخصية والمدنية او على حقوقهم السياسية والوطنية التي تمسّ مصالح الوطن برمّته.

ان غياب المجتمع المدني يطلق يد السلطة السياسية، بكل اجهزتها، لتستوعب النشاطات المجتمعية، وتوجّهها بما يخدم من هم في السلطة والذين هم، جميعاً، في الانظمة الملكية، او الجمهورية، على السواء، لم يصلوا الى الحكم بانتخابات، بل توارثوا الحكم أباً عن جد، أو من طريق انقلابات أو ثورات[2]. وغياب المجتمع المدني وغياب الديمقراطية يثيران الشك في مدى تمثيل الانظمة الحاكمة لارادة الأمّة، وبالتالي الى أي حدّ يمكن القول ان الممارسات السياسية التي تنتهجها هذه الانظمة على مستوى السياسة الداخلية، او السياسة الخارجية، تحظى برضى الشعب وتعكس اهدافه ومصالحه، سواء في حالات الحرب او في حالات السلم؟

انطلاقاً من هذه الاسئلة، التي نزعم انها تشكل فرضيات صالحة لتحليل واستقراء مجمل النزاعات والصراعات التي شهدها العالم العربي ـ ولا يظهر في الافق ما يبشّر بأنها على وشك الاختفاء، بل انها مرشحة للتزايد ـ والتي تأخذ، احياناً، شكل حرب لا تعكس، او تعبّر، بالضرورة، عن حالة عداء بين الجماهير العربية، او تناقض في المصالح فيما بينها. فهذه الجماهير غالباً لا تشاطر انظمتها في معاركها ولا تقاسمها فرحة النصر او مرارة الهزيمة، بل كثيراً ما تقيّم الجماهير العربية الحروب والنزاعات انطلاقاً من حسها القومي ومن اعتبارات المصلحة القومية، فتناوىء حكّامها في مواقفهم ان احست بأن هذه المواقف تتعارض مع المصلحة القومية، وهذا ما لمسناه في غير حالة، حيث لم تتفق حسابات الانظمة مع حسابات الجماهير، و«حرب الخليج» تعدّ من هذه الحالات.

ولأن حسابات الانظمة لا تتفق دائماً مع حسابات الجماهير، فقد وجدت الجماهير العربية نفسها، في اثناء «حرب الخليج»، في وضع متناقض محيّر تتداخل فيه الفرحة مع الخوف، والامل مع الحذر، والثقة بالنصر مع الهلع من اختلال موازين القوى بين طرفي الصراع. كانت غالبية الجماهير العربية لا تخفي فرحتها بقوة العراق وتأييدها لمواقفه، ولكنها تتخوف من هزيمة جديدة؛ هزيمة مغايرة للهزائم العربية السابقة؛ هزيمة عناصرها وركائزها واسبابها داخلية وعربية، وانْ كان بأسلحة وقوات اجنبية. وكانت الجماهير العربية يحدوها الامل بغد عربي متحرر قوي، متحكّم بثرواته، موحّد الارض والانسان، ولكن، في الوقت عينه، ينتابها الشك والحذر في مدى تجاوب الانظمة العربية مع ارهاصات هذا الغد الجديد، والشك في مدى قدرة، او رغبة، هذه الانظمة على التحرر من الهيمنة الاجنبية، الاقتصادية والعسكرية والثقافية، مع حذر لا يخفى، وخصوصاً لدى بعض المثقفين، ازاء المصداقية في الاهداف والتحالفات، سواء على مستوى الساحة الخليجية، او القومية العربية، او الدولية[3]. وبصورة عامّة، لقد كانت خارطة المواقف العربية ابّان الحرب على الشكل التالي، تقريباً:

- العراق، كطرف رئيس في الحرب، تفرّد في مواقفه.
- انظمة عربية متحالفة مع الولايات المتحدة الاميركية ومشاركة، فعلياً، في الحرب ضد العراق، وهذه الانظمة هي الدول الخليجية والسعودية وسوريا ومصر.
- انظمة عربية تعارض احتلال العراق للكويت، وتؤيده في مواجهته للتحالف العدواني،